التواصل العقدي بين الإباضية والأشاعرة وآثاره الفكرية والاجتماعية

أ.ة. فريدة بوتمجت
جامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة - الجزائر

ملخص :

يتناول موضوع المقال بعض مسائل التوافق بين المذهب الإباضي والمذهب الأشعري, رغم وجود مواضع كثيرة للاختلاف, ولأن المختلف فيه غالبا ما يكون مؤداه إلى الفرقة فبالضرورة فالمتفق عليه يولد الائتلاف ويؤدي إلى الوحدة, علما أن الاختلاف بين الناس ليس أمرا غريبا بل هو قانون من قوانين الحياة ولولاه لظلت الحياة على وتيرة واحدة من أقدم العصور.

Abstract

The article subject matters compatibility between ibadisme School and school ashari although there are many places of the difference it is known that different it always leads to the separation the agreement necessarily generates unity and it is known that the difference between people is not something hiden it is a law of life laws had not been for the diference of life on life on a single frequency.

كان المسلمون أمة واحدة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يحدث يبينهم أي خلاف في العقائد لأن القرآن الكريم خاطب العقل ودعا الإنسان إلى النظر في آثار مخلوقات الله تعالى ومنذ قرون مضت على وفات النبي صلى الله عليه وسلم أصبحت الأمة الإسلامية تعيش ظاهرة غير معهودة في شريعتها الإسلامية ودستورها المتين الداعي إلى الوحدة والتحالف والتآخي وقد سبق وان أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم. والمقصود هنا هي الفرقة والاختلاف أو ما يصح أن نطلق عليه اسم التناحر الفكري والمذهبي ,ولو تعمقنا في أسباب

هذه الظاهرة لوجدانها كثيرة وهي بدورها مختلف فيها، ولما قضى –أن تنقسم هذه الأمة– كغيرها– إلى شيع وأحزاب (كل حزب بما لديهم فرحون)، ولما عندهم منصورون، ومما باعد الشقة بينها وضاعف محنة الانصداع التي تعانيه إخلاء الأكثرين إلى مواريثهم الفكرية التي ورثوها من آبائهم وأجدادهم، وتلقفوها من أشياخهم وأساتذتهم، حتى اعتبروا أنها الأصل، فطوعوا لها نصوص الدين لأن الدين– في نظرهم– لا يبصر إلا بمنظارها، ولو كانت تلك النصوص كاشفة عن عوارها مباينة لها بينونة الحق من الباطل، مفارقة لها مفارقة الضياء للظلام. فهل يمكن تجاوز هذه الخلافات الفرعية والاجتهاد في نشر فكرة التواصل بين المذهبين وتنقية المجتمع من خلافات لا تزيده إلا فرقة والسير به إلى تحقيق الوحدة الإسلامية التي تلم شمل الأمة الإسلامية التي شتتها الخلاف ؟؟

فجاء بحثنا نداء لترك الخلاف والنزاع والدعوة للتواصل بإبراز أوجه التوافق والتكامل المذهبي، كما أن الرابطة المحمدية للعلماء بالرباط كان لها سبق في هذا فقد بادرت بمشروع لتقريب المذهب والعقيدة والسلوك وذلك يهدف إلى تحقيق مجموعة من المقاصد من بينها تأسيس خطاب تقريبي لمضامين المذهب والعقيدة والسلوك وبين منازع الاجتهاد والتجديد في الخطاب المذهبي والعقدي والسني والكشف عن النظم المعرفية والقيم السلوكية ، وذلك لا يكون إلا إذا اهتم كل مذهب بالجوانب المشرقة لكلا المذهبين والمساهمة في إعادة لم شمل الأمة الإسلامية. وهذا الداء يكون عياء إذا كان النزاع بين أهل الرسالات السماوية وبصفة أخص بين المسلمين ، فارتأينا أن نحاول البحث عن أوجه التوافق بين المذهبين باعتبار أن الأصول ثابتة لا اختلاف فيها على عكس ما يتغنى به العوام بدعوى أن الخلاف في الأصول وهذا لا يقبل إلا بشواهد من الواقع ومن طالب للحق منصف بعيد عن التحيز للمذهب والتعصب الفكري .

والمشكل الذي يحار العقل في استكناهه هو ما ينتج عن هذا الافتراق من تنازع وتدابر وتنافر قاست البشرية منها ويلات وما تزال ..

ففي خضم ما نعيشه من خلاف وافتراق وتعارض هل يمكن غض النظر عن أوجه التباعد والاختلاف ؟ومحاولة تحويل الوجهة نحو جوانب الاتفاق و الائتلاف ومحاولة تفعيلها وترسيخها

أوساط الأمة الإسلامية ؟ وإلى أي مدى يمكن أن تؤثر في تحقيق الوحدة من جديد وتعيد وتعيد إلى الأمة الإسلامية وحدتها وتجتمع تحت كلمة واحدة ؟

خطة البحث :

المبحث الأول : التعريف بالمذهب الإباضي:

المطلب الأول: مؤسس المذهب الإباضي

لقد تلقى مؤسسو المذهب الأباضي فقههم وكلامهم عن إمامهم التابعي الشهير أبوا الشعثاء جابر بن زيد الأزدي, الأمام المحدث الفقيه والذي كان من أخص تلاميذ ابن عباس , وممن روى الحديث عن أم المؤمنين عائشة رصي الله عنها , وعدد كبير من الصحابة ممن شهد بدرا , فقد كان إماما في التفسير والحديث , وكان مذهب خاص به في الفقه ولد سنة واحد وعشرون

للهجرة وتوفي بالبصرة سنة ثلاث وتسعون من الهجرة , وفي زمن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة _ أحد تلاميذ جابر بن زيد الأزدي وعلى أيدي حملة العلم الذين أعدهم أبو عبيدة ولقنهم أصول الدعوة للمذهب وأسسه _ وصلت الدعوة الإباضية إلى شمال إفريقيا , حيث وجدت آذانا صاغية وقلوبا متفتحة , دانت بها ودافعت عنها , وحاربت من أجل نصرتها وانتشارها في أرياف إفريقية , فقد كان للإباضية حضور لفت الأنظار , إذ انبث دعاتهم في القيروان وفي غيرها من المدن والأرياف , يعلمون الناس أصول مذهبهم ويقاومون الظلم , وعسف الحاكمين والتعصب العرقي الذي استند إليه ولاة الأمر وخاصة في عهد الدولتين الأغلبية والفاطمية , فوجد الأهلون في دعوتهم الملاذ الذي اعتصموا به والعدالة التي طالما هفوا إليها , وقد كان نجاحهم في إفريقية في مطلع القرن الثاني للهجرة سببا في وفادة بعض الفرق الأخرى كالشيعة والمعتزلة إلى إفريقية باعتبارها أرضا صالحة لانتشار المذهب الإباضي بسبب عوامل كثيرة يتصدرها.

إن الواضح هو أن وجود الإباضية متزامنا مع ظهور فرق أخرى، فقد ظهروا مع الخوارج، إلى حد الجدل في حشرهم مع الخوارج، وقيل عنهم أنهم الوريث الحقيقي لفكر المحكمة الأولى (، فهم يرتضون انزواء المحكمة ورفضهم التحكيم، ويتولون أئمة المحكمة حتى فارقوا الخوارج الأزارقة لما حادوا عنهم، ورفضوا حصر الخلافة في القرشيين.

وظهروا مع المعتزلة وقيل عنهم أنهم أقرب إلى المعتزلة، وقيل إن أقرب مذهب إلى الإباضية هم المعتزلة، فهم يقولون بخلق القرآن، وخلود صاحب الكبيرة في النار، وبإنفاذ الوعد والوعيد، وعدم تخلفهما. وجاء بعدهم الأشاعرة فكانوا قريبين منهم وقالوا بمثل أقوالهم، في التأويل، والكسب الأشعري .

فهل يتيح هذا الوضع القول إن الإباضية في أقوالهم مزيج من الفرق الكبرى للمسلمين؟. يذكر الأستاذ عمار طالبي بأن الإباضية تنتسب إلى عبد الله بن أباض وقد اختلف المؤرخون ويقول الاباضية في عصرنا إن إمامهم الأول هو أحد كبار التابعين جابر بن زيد الأزدي وما عبد الله بن اباض إلا مجتهد في المذهب الاباضي ومدافع عنه لذا فإن مؤرخي الإباضية لم ينصب

اهتمامهم على شخصية عبد الله بن إباض بقدر ما اهتموا بجابر بن زيد ... أما الإباضية فقد كانوا يسمون أنفسهم أهل الدعوة[1] ولم يعرفوا بالإباضية إلا بعد موت (جابر) بزمان وقد خلطوا بين الإباضية و الأزارقة والنجدية ، فالإباضية أهل الحق لم يجمعهم جامع بالصفرية ومن نحا نحوهم إلا إنكار الحكومة بين علي ومعاوية ، أما استحلال الدماء والأموال من أهل التوحيد والحكم بكفرهم كفر شرك فقد انفرد به الأزارقة والصفرية والنجدية ويكاد يتفق مؤرخ الإباضية المعاصر على يحي معمر على ما ورد في تحفة الأعيان لفظا ومعنى ويقول : فالإباضبة ابعد الناس عن الخوارج وأشدهم عليهم ولعل من أعظم ما يؤاخذ به الإباضية فرق الخوارج ، المختلفة هو استحلالهم لأموال المسلمين ودماؤهم ، ويضاف إلى ذلك أن الإباضية أقرب الفرق إلى أهل السنة من

السلفية و الأشاعرة والمعتزلة وإلى الزيدية من الشيعة[2] .

تنتسب الإباضية إلى عبد الله بن أباض وقالو : مخالفونا كفار ، غير مشركين يجوز مناكحتهم وغنيمة أموالهم من سلاحهم وغمائمهم عند الحرب دون غيره ودارهم دار الإسلام إلا معسكر سلطانهم ويقبل شهادة مخالفهم عليهم ، مرتكب الكبيرة موحد غير مؤمن والاستطاعة قبل الفعل وفعل العبد مخلوق لله تعالى يفنى العالم كله بفناء أصل التكليف ، ومرتكب الكبيرة كافر كفر نعمة لا ملة[3].

المطلب الثاني : أصول العقيدة في المذهب الإباضي :

الأصل العام في عقيدة الإباضية هو التنزيه المطلق للبارئ[4] وكل ما أوهم التشبيه من الآيات القرآنية الكريمة أو الأحاديث النبوية الثابتة يجب تأويله بما يناسب المقام ولا تؤدي إلى التشبيه[5]

الإيمان يتكون من ثلاثة أركان لا بد منها وهي الاعتقاد والإقرار والعمل, وصفات البارئ جلا وعلا ذاتية ليست زائدة على الذات ولا قائمة بها ولا حالة فيها, الله تعالى صادق في وعده ووعيده, الخلود في الجنة أو النار ابدي , كلمة التوحيد هي أن تشهد أن لا إله إلا الله, وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله وان ما جاء به حق, وإنكار أي قسم من أقسامها الثلاثة

شرك, إنكار معلوم من الدين بالضرورة شرك, القران كلام الله نقل بالتواتر وإنكار شيء منه شرك[6] الميزان ليس حسيا وإنما هو الفصل الحق بين أعمال الخلق.

الصراط ليس طريقا حسيا فوق جهنم وإنما هو طريق الإسلام ودين الله الذي ارتضاه لعباده. ووصفه بأنه أحدّ من السيف وأدق من الشعرة-إن صح-يقصد به صعوبة الاستمساك بالإسلام والسير في نهجه القويم وسط أمواج الرغبات الجامحة، والشهوات الطامحة والفتن المتلاطمة في خضم الحياة.

الإنسان حر في اختياره مكتسب لعمله ليس مجبرا عليه ولا خالقا لفعله[7].

الاستطاعة مع الفعل ليست قبله ولا بعده.

ولاية المطيع والبراءة من المعاصي واجبتان (من رأينا منه خيرا وسمعنا عنه خيرا، قلنا فيه خيرا وتوليناه، ومن رأينا منه شرا، وسمعنا عنه شرا، قلنا فيه شرا، وتبرأنا منه).

التوبة أساس المغفرة فلا تغفر كبيرة بدون توبة، أما الصغائر فإنها تغفر باجتناب الكبائر، وبفعل الحسنات (أتبع السيئة الحسنة تمحها).

الناس قسمان مؤمن وكافر أو سعيد وشقي وليس هناك قسم ثالث(لا منزلة بين المنزلتين).

من سعد في الآخرة لا يشقى أبدا، ومن شقى لا يسعد أبدا، ولن تجتمع السعادة والشقاوة لشخص واحد أبدا.

النفاق منزلة بين الشرك والإيمان، والمنافقون مع المسلمين في أحكام الدنيا، ومع المشركين في الآخرة(ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما) وهي المنزلة بين المنزلتين.

إذا أطلقت كلمة الكفر على الموحد فالمقصود بها كفر النعمة لا كفر الشرك من باب(فسباب المسلم فسوق وقتاله كفر) و (لا ترجعوا كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض) و (الرشوة في الحكم كفر).

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان.

شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ثابتة، وهي قسمان، الشفاعة الكبرى يوم القيامة لبدء الحساب ولدخول المؤمنين الجنة، وهي المقام المحمود الذي يختص به[7].

التوحيد العدل القضاء والقدر الولاية والبراءة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الوعد والوعيد المنزلة بين المنزلتين لا منزلة بين المنزلتين الأسماء والأحكام[8].

المطلب الثالث : منهج الاستدلال و مصادر التلقي عند الإباضية

منطلقات المتكلمين كانت منبثقة من القرآن إلا أنهم يحاولون صياغة ما جاء فيه من

حجج صياغة عقلية برهانية، وقد بينا أن الفكر الإباضي يتنزل في هذا المحيط وقد عالج القضية بنفس المسلك فتأمل أصحابه من وقت مبكر في حقيقة العقل، وحاولوا شيئا فشيئا تحديد مجموعة من المفاهيم صيغت في مصطلحات مثل حقيقة الجوهر والعرض والجسم والشيء والواجب والمستحيل والجائز وما إلى ذلك، وإذا علمنا أن الفكر الإباضي في المغرب ظل يتعايش مع فكر أشعري هو أقرب إلى التفويض سوى في بعض الحالات ومع بعض العلماء نستطيع أن نستجلي البعد الحضاري لهذه القضية خاصة في المرحلة المقررة في البحث.

واضح من خلال عرضنا للقضية موقف الإباضية الدفاعي ذلك لأنهم يرمون–مثل المعتزلة– بتهمة البدعة في الدين وهي من أسوا التهم في المحيط الإسلامي كما نعلم فلذلك يحتجون لموقفهم من منطلق نقلي وعقلي.

أما المنطلق النقلي فعمدتهم فيه ما جاء في الآية المذكورة أعلاه (آل عمران 7) من إشارة تمكن الراسخين في العلم من التأويل مع آية أخرى هي أكثر صراحة في الحث على التأويل وهي قوله تعالى: (لعلمه الذين يستنبطونه منهم) (4 النساء 83) وما الاستنباط إلا فهم النص وعدم الاكتفاء بظاهره .. وكذلك يعتمدون في هذا على ما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم " ما من كلمة إلا ولها وجهان فاحملوا الكلام على أحسن وجوهه".

وكذلك يعتمدون في موقفهم هذا على مواقف بعض الصحابة مثل ابن عباس من التأويل.

أما المنطلق العقلي فهو يقوم على جانبين[9]:

– الجانب الأول لغوي: فعلى المتأول أن يكون ملما بأسرار اللغة العربية وفعلا فقد اجتهدوا اجتهادا كبيرا في استقصاء البحث في القرآن والحديث واللغة لكل كلمة تأولوها وأثبتوا من خلال ذلك أن النص القرآني لو حمل على ظاهره لتناقض في عديد من المواطن.

وفي هذا الباب حذروا من خطرين:

* أولهما اجتناب تأويل القرآن وفق الهوى عن علم وذلك رغبة في التلبيس على الخصم أو عن جهل فيميل الفهم عن الصواب.

* وثانيهما اجتناب التسرع إلى التأويل بظاهر العربية من غير استقصاء المنقول في شأن النص.

– أما الجانب الثاني فيتمثل في شعورهم بان معجزة القرآن تتجلى في باب التأويل والاستنباط على أساس الإخلاص لله تعالى وفي هذا فتح لباب الاجتهاد الذي يجعل القرآن الكريم صالحا لكل زمان ومكان.

وإن اتضح المنطلق الدفاعي في النقل والعقل فإن مظهره يتجلى في حرص الإباضية على

تأويل جميع النصوص المتشابهة في حق الله تعالى وفق منهج معين يرمي إلى تنزيه الله تعالى عما يوهم التشبيه وظلوا بذلك أوفياء إلى الآية التي جعلوها محور الحديث عن الذات والصفات (ليس كمثله شيء).

ويتمثل هذا المنهج في الانطلاق من موقف الطرف الذي ينكر التأويل مع ذكر ما يحتج به ثم يتدرج به شيئا فشيئا للوصول إلى التأويل المطلوب اعتمادا على نصوص مختلفة.

كما أن هذا التحليل يدعم من حين لآخر بقول بعض من الذين ينتمون إلى الطرف المقابل بالتأويل القائم على المجاز وقد تحتد اللهجة أحيانا إلى درجة الحط من مواقف الآخرين.

والنور بمعنى الهداية والدنو بمعنى سرعة الإجابة، وما إلى ذلك من التأويلات التي ذكرنا.

وبقدر ما كانت المعركة نسبيا هادئة في شأن كثير من التأويلات فإنها احتدت أكثر في قضية الاستواء فلم يقبل الإباضية البتة أن يكون الاستواء على العرش كاستواء الأمير على السرير كما لم يقبلوا السكوت عن الإجابة عن الكيف إذ يعتبرون ألا كيف.

وفعلا فقد رأينا في الرسائل التي تهجمت على الإباضية أن الهجوم يركز على قولهم في الاستواء واعتباره بدعة إذ منطلق هؤلاء إما الوقوف وهو الغالب وإما فهم النص على ظاهره. وهنا يحسن أن نشير أن صدى مثل هذا التأويل يتجلى في المستوى النظري أكثر لكن لا يخلو من أثر في عامة الناس الذين كانوا يحضرون دروس مشائخهم الذين يتوسعون في تحليل هذه القضايا في حلقاتهم الخاصة وهذا من شأنه أن يجعل شيئا من الجفوة بين الناس أساسه احتراز الأكثرية من هذه الأقلية الخارجية المبتدعة وانتباه الأقلية من الذوبان في هذه الأكثرية المشبهة ولهذا قل أن نجد الاندماج الكلي بين الطرفين حتى في مستوى السكن وكثيرا ما يتم التنابز بين المتعايشين بكلمات عامة تحمل في طياتها من جملة ما تحمل خلفيات الفوارق في هذا التصور العقائدي.

هذا في المستوى الحضاري المعاش أما في المستوى العلمي النظري فقد أدى الاختلاف في هذه القضية كلا من الطرفين إلى الوقوف عند الآية المعبرة عن الاستواء كلمة.

فتفنن كل لتطويع حرف العطف " ثم" وحرف الجر" على" لما يوافق منطلقه واللغة مطواع لذلك فمن أراد منها معنى الحقيقة تعطيه ومن أراد منها المجاز لا تعوزه.

هكذا جاءت النفس بمعنى الذات والعين بمعنى العلم والحفظ[10]. ومبدأ هذه المصادر اللجوء إلى التأويل اعتمادا على المجاز وعلى العرف اللغوي، وعدم الوقوف عند الظاهر كما يفعل أهل الحديث وأهل السنة- حسب ما يرويه الأشعري- الذين:" يقرون أن الله سبحانه يجيء يوم القيامة كما قال: (وجاء ربك والملك صفا صفا) (الفجر 39) وأن الله يقرب من خلقه كيف شاء كما قال: (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) (ق16).

فهذا تبغورين مثلا يقول:" ولو حمل القرآن على ظاهره لتناقص وتكاذب" ويقول أيضا عند الرد على المشبهة:" فلما صح عندنا وعندهم أن هذا الذي ذكرنا يخرج على غير المعقول في كثير من لغات العرب نفيا عن الله الشبه والمعقول كما نفاه عن نفسه" ثم استشهد بحديث: " ما من كلام إلا وله وجهان فاحملوا الكلام على أحسنه" الذي ورد في الجامع

الصحيح للربيع كما ذكرنا ذلك قبل حين[11].

نهج الإباضية في تأويل المتشابه (النور، العين، المجيء، والذهاب): سأورد ثلاثة نصوص تبين طريقة الإباضية في التأويل ثم اكتفى بعد ذلك بذكر المفاهيم التي قرروها لبعض المتشابه لأقف في ما بعد عند ثلاثة قضايا كانت مثار جدل بين الفرق الإسلامية لاختلافها في منطلق الفهم وهي الاستواء والرؤية والكلام.

- أما النص الأول فهو تأويل قوله تعالى (الله نور السماوات والأرض) (النور 35). وأما ما احتجوا به من قوله تعالى: (الله نور السماوات والأرض) وقوله (يد الله فوق أيديهم) (الفتح 10) وقوله (تجري بأعيننا) (القمر 14) و (في جنب الله) (الزمر 56).

ونفسه وأشباه هذا من الآيات المتشابهات والروايات عن النبي عليه السلام فأغفلوا فيه

النظر وحملوه على غير تأويله وتركوا قول الله عز وجل: (ليس كمثله شيء) (الشورى 11) وقوله: (هل تعلم له سميا) (مريم 65) وقوله: (الواحد القهار) (الزمر 4) وقول النبي عليه السلام: " من وصف الله بشبه أو مثل لم يعرفه".

" واعلم أن معنى النور في اللغة الجارية بين الناس الذي لا ينكره أحد من أهل اللغة الهادي يقول الناس للعالم: نور البلاد، والهدى: نور، وقال الله تعالى: (وجعل الظلمات والنور) (الأنعام 1) وقال تعالى: (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) (البقرة 257) يعني من الكفر إلى الإيمان.

وفي قوله: (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) (النور 35) [فمثل هذا النور إلى المصباح]. ما يدل على صواب ما قلنا إنه الإيمان في قلب المؤمن.

ومن كلام النبي عليه السلام: "احذروا فراسة المؤمن فإنه بنور الله ينظر وكاد أن يبصر الحق بقلبه وإن لم يخبر به ويميز بين الحق والباطل بنور الله الذي أعطي له".

وقد سمى الله القرآن نورا في غير موضع من كتابه كما سماه هدى ورحمة" .

وأما النص الثاني فيتعلق بكلمة " عين" والعين أيضا تخرج على العلم والحفظ وعلى المعقول ومعنى (تجري بأعيننا) (القمر 14) أي بعلمنا. وقال الله تعالى: (ثم لترونها عين اليقين) (التكاثر 7) يعني يقينا لا شك فيه. ويقولون: عيني على فلان وما فعل فلان يعني يريد بعلمه. و (ولتصنع على عيني) (طه 39) أي بعلم مني ومرادي وحفظي وكذلك (تجري بأعيننا).

- وأما النص الثالث فيتعلق بالمجيء والذهاب: قال: (وجاء ربك) (الفجر 22) أي جاء أمر ربك. وقال (فأتى الله بنيانهم من القواعد) (النحل 26) يعني أمره وعقوبته. وقال: (ناكسوا رؤوسهم عند ربهم) (السجدة 12) أي خضوعهم لربهم يوم القيامة ولو حمل القرآن على ظاهره لتناقض وتكاذب وقال الناس للميت: لقي ربه وصار إلى ربه ولم يريدوا أن ربه في القبر. وقال إبراهيم عليه السلام: (إني ذاهب إلى ربي سيهدين) (الصافات 99) أي ذهابه إلى حيث أمر به. ويلزم المشبهة بأن يعرفوا لربهم موضعا إذا صح عندهم أنه يزول وينتقل.

هذه النصوص تبين أن الإباضية يعمدون إلى جمع النصوص التي تحتوي نفس الكلمة فيقارنون في ما بينها كما يقيسون معانيها بالمعاني المستعملة في اللغة ثم يرجحون جانب التأويل الذي يتناسق وجملة السياق. وكل هذا في جرأة واضحة تتحول أحيانا إلى التحدي والتهكم كما هو واضح خاصة في النص الثالث وفي مطلع النص الأول. فلا سبيل حينئذ إلى اعتماد الظاهر في مثل هذه الآيات لأنه يؤدي إلى التناقض والقرآن متناسق متكامل يفسر بعضه بعضا وذلك البرهان من براهين الإعجاز فيه (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) (النساء 82) فلم يبق إذن إلا اعتماد التأويل الذي تقلبه اللغة.

المبحث الثاني : التعريف بالمذهب الأشعري

المطلب الأول : مؤسس المذهب الأشعري

ومن الفرق التي برزت في هذا الوقت الجهمية المعطلة لأسماء الله وصفاته، ثم خرجت المعتزلة وأساتذة علم الفلسفة، وعلم الكلام واستبدوا بالرأي والهوى دون نصوص الوحي والهدى، وكانت لهم شوكة ومنعة، ووقف بجانبهم بعض خلفاء العباسيين، وتطاولت ألسنتهم وأيديهم على أئمة أهل السنة والحديث من السلف كالإمام أحمد – رحمه الله تعالى – ثم جاء أبو الحسن الأشعري ونشأ على مذهب المعتزلة في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، وتتلمذ على يد إمام المعتزلة في عصره وهو: أبو علي الجبائي زوج أمه، وبرع الأشعري في علم الكلام على مذهب الاعتزال إلى أن هداه الله عز وجل فخرج عليهم وأعلن براءته منهم، وسلك أولاً الطريقة الكلابية وهي طريقة عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان الذي كان يثبت الصفات العقلية كالإرادة والقدرة والسمع والبصر، ويؤوِّل الصفات الخبرية كالوجه واليد والاستواء ثم ختم الله لأبي الحسن الأشعري بالخير فرجع إلى مذهب السلف وقال بقولهم، وانتسب إلى الإمام أحمد بن حنبل.

ويظهر أن رجوع الأشعري عن الاعتزال في هذا الوقت، ووقوفه ضدهم ناصراً ومؤيداً مذهب السلف الصالح في الوقت الذي شاع فيه مذهب الاعتزال أدى إلى رفع شأنه وعلو منزلته بين الناس، فسرعان ما انتشر أمره وكثر أتباعه في الآفاق، وأرسل إليه الناس من معظم الأقطار يسألونه عن دين الله الحق وعن معتقد السلف الصالح.

وظل الأشعري – بعد رجوعه إلى عقيدة السلف– يدافع عن دين الله الحق ويكتب ويؤلف في الرد على أهل الأهواء، والبدع المخالفين لمذهب السلف إلى أن توفاه الله تعالى، والأشعري كغيره من العلماء المشهورين له أتباع كثيرون، وهؤلاء الأتباع لم يرجعوا كما رجع إمامهم إلى عقيدة السلف في طوره الأخير، بل خالفوا إمامهم الأشعري في كثير من الأمور الاعتقادية، ولم يأخذوا بالمنهج الذي سلكه إمامهم في نهاية حياته بعد رجوعه إلى مذهب السلف، بل بقوا على طريقة عبد الله بن سعيد بن كلاب التي سلكها .

*/ التعريف بالإمام: هو علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، ولد سنة ستين ومائتين من الهجرة النبوية، ترجمه أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي في كتابه (تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي موسى الأشعري)[12] والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد) وابن خلكان في وفيات الأعيان والذهبي في (تاريخ الإسلام) وابن كثير في (البداية والنهاية) و(طبقات الشافعية) والتاج السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى) وابن فرحون المالكي في (الديباج المذهب في أعيان أهل المذهب) ومرتضى الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين) وابن العماد الحنبلي في (شذرات الذهب في أعيان من ذهب) وغيرهم. دخل هذا الإمام بغداد وأخذ الحديث عن الحافظ زكريا بن يحي الساجي أحد أئمة الحديث والفقه وعن أبي خليفة الجمحي وسهل بن سرح ومحمد بن يعقوب المقري وعبد الرحمن بن خلف البصريين، وروى عنهم كثيراً في تفسيره (المختزن) وأخذ علم الكلام عن شيخه زوج أمه أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة. ولما تبحر في كلام الاعتزال وبلغ فيه الغاية كان يورد الأسئلة على أستاذه في الدرس ولا يجد فيها جواباً شافياً فتحير في ذلك. فحكي عنه أنه قال: وقع في صدري في بعض الليالي شيء مما كنت فيه من العقائد فقمت وصليت ركعتين وسألت الله تعالى أن يهديني الطريق المستقيم ونمت فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فشكوت إليه بعض ما بي من الأمر، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم " عليك بسنتي " فانتبهت!! وعارضت مسائل الكلام بما وجدت في القرآن والأخبار، فأثبته ونبذت ما سواه ورائي ظهرياً.

قال أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي المتوفى سنة 463هـ في تاريخه[13]: " أبو الحسن الأشعري المتكلم صاحب الكتب والتصانيف في الرد على الملحدة وغيرهم من المعتزلة والرافضة، والجهمية، والخوارج وسائر أصناف المبتدعة.

إلى أن قال: وكانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله تعالى الأشعري فحجزهم في أقماع السمسم". قال ابن فرحون في الديباج: "أثنى على أبي الحسن الأشعري أبو محمد بن أبي زيد القيرواني وغيره من أئمة المسلمين". وقال ابن العماد الحنبلي في الشذرات[14]: ومما بيض به أبو

الحسن الأشعري وجوه أهل السنة النبوية وسود به رايات أهل الاعتزال والجهمية، فأبان به وجه الحق الأبلج، ولصدور أهل الإيمان والعرفان أثلج، مناظرته مع شيخه الجبائي التي بها قصم ظهر كل مبتدع مراء وهي أعني المناظرة كما قال ابن خلكان: "سأل أبو الحسن الأشعري أستاذه أبا علي الجبائي عن ثلاثة إخوة، كان أحدهم مؤمناً براً تقياً والثاني كان كافراً فاسقاً شقياً، والثالث كان صغيراً، فماتوا فكيف حالهم؟ فقال الجبائي: أما الزاهد ففي الدرجات، وأما الكافر ففي الدركات، وأما الصغير فمن أهل السلامة، فقال الأشعري: إن أراد الصغير أن يذهب إلى درجات الزاهد هل يؤذن له؟ فقال الجبائي: لا !! لأنه يقال له: أخوك إنما وصل إلى هذه الدرجات بطاعته الكثيرة وليس لك تلك الطاعات، فقال الأشعري فإن قال: ذلك التقصير ليس مني، فإنك ما أبقيتني ولا أقدرتني على الطاعة، فقال الجبائي: يقول البارئ جل وعلا: كنت أعلم لو بقيت لعصيت وصرت مستحقاً للعذاب الأليم فراعيت مصلحتك، فقال الأشعري: فلو قال الأخ الأكبر يا إله العالمين كما علمت حاله فقد علمت حالي، فلمَ راعيت مصلحته دوني فانقطع الجبائي"!! وقال ابن العماد: "وفي هذه المناظرة دلالة على أن الله تعالى خص من شاء برحمته واختص آخر بعذابه". وقال تاج الدين السبكي في طبقات الشافعية الكبرى: " أبو الحسن الأشعري كبير أهل السنة بعد الإمام أحمد بن حنبل وعقيدته وعقيدة الإمام أحمد رحمه الله واحدة لا شك في ذلك ولا ارتياب وبه صرح الأشعري في تصانيفه وذكره غير ما مرة من أن عقيدتي هي عقيدة الإمام المبجل أحمد بن حنبل، هذه عبارة الشيخ أبي الحسن في غير موضع من كلامه". وفضائل أبي الحسن الأشعري ومناقبه أكثر من أن يمكن حصرها في هذه العجالة، ومن وقف على تواليفه بعد توبته من الاعتزال رأى أن الله تعالى قد أمده بمواد توفيقه، وأقامه لنصرة الحق والذب عن طريقه.
وقد تنازع فيه أهل المذاهب، فالمالكي يدعي أنه مالكي، والشافعي يزعم أنه شافعي، والحنفي كذلك. قال ابن عساكر: لقيت الشيخ الفاضل رافعاً الحمال الفقيه، فذكر لي عن شيوخه أن أبا الحسن الأشعري كان مالكياً فنسب من تعلق اليوم بمذهب أهل السنة وتفقه في معرفة أصول الدين من سائر المذاهب إلى الأشعري لكثرة تواليفه وكثرة قراءة الناس لها.

قال ابن فورك: توفي أبو الحسن الأشعري سنة 324هـ..

وبعد ذكر هذه من ترجمة هذا الإمام نذكر فيما يلي إثبات رجوعه عن الاعتزال وإثبات نسبة (الإبانة) إليه ننقل ذلك من المراجع الموثوق بها، فنقول وبالله التوفيق:

رجوع أبي الحسن الأشعري عن الاعتزال إلى عقيدة السلف: قال الحافظ مؤرخ الشام أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي المتوفى سنة 571هـ في كتابه (التبيين) : قال أبو بكر إسماعيل بن أبي محمد بن إسحاق الأزدي القيرواني المعروف بابن عزرة: إن أبا الحسن الأشعري كان معتزلياً وأنه أقام على مذهب الاعتزال[15] أربعين سنة، وكان لهم إماماً ثم غاب عن الناس في بيته خمسة عشر يوماً، فبعد ذلك خرج إلى الجامع بالبصرة فصعد المنبر بعد صلاة الجمعة، وقال: معاشر الناس إني إنما تغيبت عنكم في هذه المدة لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة ولم يترجح عندي حق على باطل ولا باطل على حق، فاستهديت الله تبارك وتعالى فهداني إلى ما أودعته في كتبي هذه، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده، كما انخلعت من ثوبي هذا، وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به ودفع الكتب إلى الناس، فمنها كتاب اللمع وغيره من تواليفه الآتي ذكر بعضها قريباً إن شاء الله: فلما قرأ تلك الكتب أهل الحديث والفقه من أهل السنة والجماعة أخذوا بما فيها وانتحلوه واعتقدوا تقدمه واتخذوه إماما حتى نسب مذهبهم إليه فصار عند المعتزلة ككتابيٍ أسلم وأظهر عوار ما تركه فهو أعدى الخلق إلى أهل الذمة. وكذلك أبو الحسن الأشعري أعدى الخلق إلى المعتزلة، فهم يشنعون عليه وينسبون إليه

الأباطيل وليس طول مقام أبي الحسن الأشعري على مذهب المعتزلة، مما يفضي به إلى انحطاط المنزلة، بل يقضي له في معرفة الأصول بعلو المرتبة ويدل عند ذوي البصائر له على سمو المنقبة، لأن من رجع عن مذهب كان بعواره أخبر وعلى رد شبه أهله وكشف تمويهاتهم أقدر، وبتبيين ما يلبسون به لمن يهتدي باستبصاره أبصر، فاستراحة من يعيره بذلك كاستراحة مناظر هارون بن موسى الأعور. وقصته أن هارون الأعور كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه وحفظ القرآن وضبطه وحفظ النحو، وناظره إنسان يوماً في مسألة فغلبه هارون فلم يدر المغلوب ما يصنع فقال له: أنت كنت يهودياً فأسلمت فقال له هارون فبئس ما صنعت فغلبه هارون في هذا. واتفق أصحاب الحديث أن أبا الحسن الأشعري كان إماماً من أئمة أصحاب الحديث، ومذهبه

مذهب أصحاب الحديث، تكلم في أصول الديانات على طريقة أهل السنة ورد على المخالفين من أهل الزيغ والبدعة، وكان على المعتزلة و الروافض والمبتدعين من أهل القبلة والخارجين عن الملة – سيفاً مسلولاً ومن طعن فيه أو سبه فقد بسط لسان السوء في جميع أهل السنة، ولم يكن أبو الحسن الأشعري أول متكلم بلسان أهل السنة وإنما جرى على سنن غيره وعلى نصرة مذهب معروف، فزاده حجة وبياناً، ولم يبتدع مقالة اخترعها ولا مذهباً انفرد به وليس له في المذهب أكثر من بسطه وشرحه كغيره من الأئمة. وقال أبو بكر بن فورك: رجع أبو الحسن الأشعري عن الاعتزال إلى مذهب أهل السنة سنة 300 من الهجرة .[16]

المطلب الثاني : : أصول العقيدة عند الأشاعرة

وجود البارئ تعالى ولا خالق سواه ، قديم ، حدوث العالم ، متصف بالعلم والقدرة وسائر صفات الجلال ، لا شبيه له ولا ضد ولا يحل في شيء ولا يقوم بذاته حادث ليس في حيز ولا جهة ولا يصح عليه الحركة ولانتقال والجهل ولا الكذب ولا شيء من صفات النقص ، مرئي للمؤمنين في الآخرة ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن غني لا يحتاج إلى شيء ولا يجب عليه شيء إن أناب فبفضله وإن عاقب فبعدله لا غرض لفعله ولا حاكم سواه ، لا يوصف فيما يفعل ولا يحكم بجور ولا ظلم وهو غير متبعض ولا له حد ، ولا نهاية وله الزيادة والنقصان في مخلوقاته ، والميعاد حق ، وكذا المجازاة ، والمحاسبة والصراط والميزان وخلق الجنة والنار وخلود أهل الجنة فيها والكفار في النار ، ويجوز العفو والشفاعة حق وبعثة الرسل بالمعجزات حق من آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم وأهل بيعة الرضوان، وأهل بدر ، من أهل الجنة والإمام يجب نصبه على المكلفين والإمام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي والأفضلية بهذا الترتيب ولا نكفر أحدا من أهل القبلة إلا بما فيه نفي للصانع القادر العليم ، أو شرك أو إنكار للنبوة[17] .

لا يذكر التنزيهات وهي الأمور التي ينزه الله تعالى عنها فيذكر أن الصانع ليس بعرض ، ويستدل على ذلك أدلة ، أن خصائص العرض لا تتحقق والذات الإلهية ، والعرض يستحيل بقاؤه وما يستحيل بقاؤه لا يكون قديما وثبت أن صانع العالم قديم ...[18]

المطلب الثالث: منهج الاستدلال و مصادر التلقي عند الأشاعرة

ويتبن مصادر التلقي عند الأشاعرة من خلال ما قاله الأشعري في الإبانة : ... وقولنا الذي نقول به وديانتنا الذي ندين بها التمسك بكتاب الله ربنا عز وجل وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم , وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون , وجملنا قولنا أننا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نرد من ذلك شيئا وأن الله عز وجل إله واحد لا إله إلا هو فرد صمد لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وأن محمدا عبده ورسوله أرسل بالهدى ودين الحق , وأن الجنة حق والنار حق , وأن الساعة آتية لا ريب فيها , وأن الله يبعث من في القبور , وأن الله استوى على العرش كما قال : الرحمن على العرش استوى , وأن له وجه كما قال: ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام , وأن له يدين بلا كيف كما قال: خلقته بيدي, وكما قال : يداه مبسوطتان , وأن له عين بلا كيف كما قال : تجري بأعيننا , وأن من زعم أن أسماء الله غيره كان ضالا وان الله علما كما قال : أنزله بعلمه , وكما قال : وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه , ونثبت لله السمع والبصر , ونثبت أن لله قوة كما قال : أو لم يرو أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة .. وأنه لا يكون في الأرض شيء من خير وشر إلا ما شاء الله وان الأشياء تكون بمشيئة الله ولا تقدر على الخروج من علم الله عز وجل , وأنه لا خالق إلا الله وأن أعمال العباد مخلوقة لله مقدورة كما قال: خلقكم وما تعملون , وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئا كما قال: هل من خالق غير الله .

وأنا نؤمن بقضاء الله وقدره خيره وشره حلوه ومره ونعلم أن ما أخطأنا لم يكن ليصيبنا وأن ما أصابنا لم يكن ليخطئنا : لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله .

ونرى أن لا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب يرتكبه كالزنا والسرقة وشرب الخمور , ونقول أن من عمل كبيرة من هذه الكبائر مثل الزنا والسرقة وما أشبهها مستحلا لها غير معتقد بتحريمها كان كافر . ونقول أن الإسلام أوسع من الإيمان وليس كل الإسلام إيمان , وندين بأنه يقلب

القلوب وأن القلوب بين أصبعين من أصابع الله عز وجل , وأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص[19] .

الصراع العقدي الموجود بين المعتزلة وأهل السنة من جهة والشيعة وأهل السنة من جهة أخرى أثرى الفكر الإسلامي لما كان يدور بينهم من مناظرات , وكذلك فقد نشط التأليف من شتى الفرق الإسلامية والمدارس ليبين كل معتقده ومذهبه بيانا شافيا , كما يرد على طعونهم بإسهاب فألفت المطولات خاصة في الاعتقاد[20].

الأشاعرة يثبتون وجود الاستطاعة بالاعتماد على البداهة وعلى شهادة الضمير وحكمه بوجود قدرة لدى العبد تأتي الأفعال وهذا ما ذهب إليه الأشعري نفسه عند إثبات الفرق بين القدرة والقادر لأنه لو كان مستطيعا بنفسه أو بمعنى يستحيل مفارقته له لم يوجد إلا هو وهو مستطيع فلما وجد مرة مستطيع ومرة غير مستطيع وثبت أن استطاعته غيره[21] .

وقد ثبت عند الأشاعرة اعتمادا على الحجة النقلية خصوصا عند الباقلاني (ويجب أن يعلم أن الاستطاعة للعبد تكون مع الفعل , لا يجوز تقديمها عليه ولا تأخيرها عنه , كعلم الخلق وإدراكهم لا يجوز تقديم العلم على المعلوم ولا الإدراك على المدرك والدليل على ذلك قوله تعالى (وكانوا لا يستطيعون سمعا) (الكهف 101).

المذهب الأشعري يوفق بين الدليلين النقلي والعقلي في مسائل العقيدة وقد حاول الأشعري توظيف العقل لخدمة النقل وفهمه وضبط العقل بقيود مستمدة من النص, والملاحظ من خلال تتبع آرائه في المسائل العقدية الاقتران بين النقل والعقل فأدلة الأشعرية العقلية مأخوذة من النصوص الشرعية, فكان العقل يسير جنبا إلى جنب مع النقل الذي يعد هو الأساس عند الأشعري[22].

مسألة أفعال الإنسان من المسائل الرئيسية في مذهب الأشعري ومذهبه فيها أن أفعال العباد مخلوقة لله وليس للإنسان فيها غير اكتسابها بعد أي أن الفاعل الحقيقي هو الله وما الإنسان إلا

مكتسب للفعل أحدثه الله على يد هذا الإنسان , والكسب هو تعلق قدرة العبد وإرادته بالفعل المقدور المحدث من الله على الحقيقة .

المبحث الثالث : التواصل العقدي بين الأشعرية و الإباضية

المطلب الأول : أوجه التوافق العقدي بين المذهبين

1- التوحيد: فكل الأمة منفقون على أن الله واحد لا يشبه شيئا ولا يشبعه شيء وإنما الخلاف فيما يلزم عنه التنزيه ويضاف إلى ذلك أن الإباضية أقرب الفرق إلى أهل السنة من السلفية والأشاعرة والمعتزلة وإلى الزيدية من الشيعة[23] ضمن هذا العلم وقد ضبط الشهرستاني (479 - 458/ 1086 - 1153) الأصول الكبرى التي عوجلت في هذا الفن عند كل الفرق وهي أربعة:

1 - الصفات والتوحيد فيها.

2 - القدر والعدل فيه.

3 - الوعد والوعيد والأسماء والأحكام.

4 - السمع والعقل والرسالة والإمامة.

ونلاحظ أن الشهرستاني في هذا الحصر يكاد يغفل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ وإن أمكن حشره ضمن الإمامة فإنه يبقى مستقلا عنها خاصة عند المعتزلة، كما أنه لا يذكر الولاية والبراءة وهي أصل من أصول الإباضية. وعلى كل فذاك اجتهاد من الشهرستاني قصد منه السيطرة على موضوع حير العقول.

ويحسن أن نذكر أن المصادر الإباضية تكتفي بذكر أربعة من هذه القضايا أحيانا إلا أنها تصل بها إلى عشرة غالبا وهي:" التوحيد، القدر، العدل، الوعد والوعيد، المنزلة بين المنزلتين، ألا منزلة بين المنزلتين، والأسماء والصفات والأمر والنهي، والولاية والبراءة، والأسماء والأحكام تلك هي محاور النزاع الفكري والدامي أحيانا بين مختلف الفرق الإسلامية وعليها مدار علم الكلام[24].

الإباضية و الأشعرية يبدو أن الخلاف لم يكن حادا بين الإباضية و الأشاعرة خاصة في المسائل التعبدية أما العقيدة فقد حاول أبو يعقوب الوارجلاني حصر مواطن الخلاف بين الفرقتين فوجدها تتلخص فيما يلي:

أطلقوا– أي الأشعرية– على الباري صفات لها معاني قديمة ليست هي ذات الله فأوجبوا التغاير، وبمقتضى هذه المعاني كان الله موصوفا بها فبالعلم كان عالما وبالقدرة كان قادرا، فهي قائمة بالذات بينما عند الإباضية هي عين ذات الله سبحانه وليست زائدة عنه.

وصفوا الله بالوجه واليدين وارأس والعينين، والقبضة والساق والاستواء والميل.... بينما ينزه الإباضية عن الله هذه الصفات والتشبيهات.

الكلام من المعاني التي وصفوه بها، وكذا الأمر والنهي المندرجين في الكلام والقرآن وسائر كتب الله المنزلة، كل ذلك من المعاني التي يوصف بها.

العدل والإحسان والفضل والمن والأنعام صفاته تعالى لكنها أفعال محدثة، ويضيف الوارجلاني– أما الأشعرية لسنا مختلفين حول وحدانية الله وعدم حدوث المحدث وخصمنا جميعا الدهرية الضالة. وفي الحديث عن الأشعرية تشير إلى أن العلاقة بين الإباضية وأهل السنة حسنة وتشهد تقاربا ملحوظا في الآراء والأفكار.

إذا استثنينا بعض المسائل المختلف حولها كالخلود والقدرة، وخلق القرآن ولذلك نجد الكثير من الدارسين للفكر الإسلامي يثبتون هذا التوافق فلا يذكرون الاختلاف بين الإباضية وأهل السنة إلا أحيانا ويشير ش. محمد أبو زهرة إلى هذا التقارب فيقول عن الإباضية أنهم "أكثر الخوارج اعتدالا وأقربهم إلى الجماعة الإسلامية تفكيرا. فهم أبعدهم عن الشطط [25] والغلو إلا أنه كان من الأحرى أن يقول أقربهم إلى أهل السنة لأن في قوله "أقربهم إلى الجماعة الإسلامية" تلميح إلى أنهم ليسوا من الجماعة الإسلامية.

وفي الواقع لا يحسن أن نرى الإباضية على أنها فرقة ليست من أهل السنة وان لا علاقة لها بالسنة إلا من حيث الاقتراب، لأن المعروف عن الإباضية أنها تولي عناية خاصة وعظيمة جدا

للسنة النبوية، وهذا ما يثبته أحد الأساتذة المنصفين حين يقول: إن المدقق في المصادر الفقهية الإباضية يجد أن أصحاب المذهب الإباضي من أكثر المسلمين إتباعا للسنة الشريفة والاقتداء بها، أما ما تلصقه بهم بعض المصادر من تهم فإنما هو ناتج عن أحد أمرين الجهل أو التعصيب.

ومما يؤكد ذلك أن أئمة السنة الذين دونها واشتهروا بها إنما جاءوا بعد جابر بن زيد (إمام الإباضية) بمدة طويلة فيكون جابر قد سبق علماء السنة ورواة الحديث ظهورا ولذلك أقبل عليه نقله السنة للأخذ عنه فروى عنه البخاري ومسلم في صحيحيهما أما الأمة الأربعة الذين هم أساس المذاهب الأربعة المشهورة فأنهم جاءوا بعد جابر كذلك. وبيان ذلك أن الإمام أبا حنيفة لم يدرك من حياة الإمام جابر سوي ثلاث عشرة سنة.

أما الإمام مالك فلم يدرك الإمام جابر سوي عشر سنوات على أقصى تقدير . أو سنة

واحدة على أقرب تقدير. نظراً للاختلاف حول تاريخ وفاة الإمام جابر، والمرجع سنة وهي السنة التي وُلد فيها الإمام مالك

أما مولد الإمامين الشافعي وأحمد بن حنبل فكان بعد ذلك التاريخ. وبهذا يكون الإمام جابر متقدماً على الأئمة الأربعة[26].

إذاً فوجه الالتقاء بين الإباضية والسنة يتضح من شخصية الإمام جابر بن زيد الذي ينسبه ياقوت الحموي (ت626هـ -1228م) في معجمه إلى أهل السنة واعتبره أحد أئمة السنة من أصحاب عبد الله بن عباس لكثرة ملازمته لعبدا لله ورواية الحديث عنه كما روى عن عبد الله بن عمر وأبي هريرة وعائشة وغيرهم، وهو يعتبر من أبرز التابعين .

هذا بعض ما يتعلق بالتقارب والالتقاء بين أهل الآخر لم يكن على خلاف كبير مع أهل السنة. وحسبه أن يحظى بثقة الأمويين ويرتبط بعلاقة طيبة مع الخليفة عبد الملك بن مروان على غرار العلاقة القائمة بين الإمام جابر بن زيد والحجاج بن يوسف وان كان هذا الأخير لم يكن على علم بحقيقة الانتماء المذهبي لجابر. بينما عبد الله بن إباض "كان المجاهد علناً المناضل في

سبيل تحقيق الحقائق وتصحيح قضايا العقول فيما أحدثه أهل المقالات، وكان شديداً في الله تعالى له مناظرات مع أهل النطس والتفلسف "وكانت أقاويله كما يذكر أبو العباس المبرد أقرب الأقاويل إلى السنة ويمكن القول بعد الذي تقدم أن الخلاف بين الإباضية وأهل السنة لم يكن حول الأصول، بل تمركز حول بعض الفروع الجزئية، يذكر منها الأستاذ أحمد أمين مسألة الزواج، فيقول عن الإباضية " أنهم لا يرون الزواج يصح إلا فيما بينهم") وهذا غير صحيح لأنه لم يرد في مؤلفات الإباضية قول من هذا القبيل، وهو مستبعد اللهم إلاّ أن يكون الإباضية يشترطون شروطاً ذات طابع إسلامي لتمسكهم بالمبادئ الشرعية فيتعذر لغير الإباضي الالتزام بها، والواقع يثبت أنه تم الزواج بين الإباضية وغيرهم في موضع آخر [27].

وفي مسألة الإمامة يتفق الإباضية مع أهل السنة في وجوب الإمامة، وان طريق عقد الإمامة هو الاختيار بالاجتهاد، وانه ليس للنبي صلي الله عليه وسلم نص على إمامة واحد بعينه خلاف قول من زعم من الرافضة أنه نص على إمامة علي (رضي الله عنه) نصاً مقطوعاً بصحته، إلا أن أهل السنة وضعوا النسب من قريش شرطاً للإمامة ، والاباضية لم يعتبروا القرشية شرطاً وإنما تقدم من باب الأولوية، واتفق الفريقان أيضاً على تفضيل أبي بكر وعمر وعلي وعثمان (رضي الله عنهم) وأنهم جميعاً عدول، خلافاً للشيعة التي فضّلت عليّا عمّا سواه[28].

والإباضية يتفقون مع الأشاعرة والماتريدية في أن الاستطاعة مع الفعل وقد حرص يوسف المصعبي في حاشيته على أصول تبغورين أن يلم بالقضية من جميع جوانبها وتتجلى طرافته في المقارنة بين النصوص والمقابلة بينها وقد جاءت استشهادية في شرحه مكملة لما لم يتعرض إليه تبغورين[29].

كما أن دعوة الإباضية إلى التقارب ونبذ الخلافات, كانت ولازالت مستمرة , رغم أن الذي يغلب على ظن الكثير من الباحثين والدارسين للفكر الإسلامي أن الإباضية فرقة خارجية تفضل الانطواء والانغلاق حول نفسها وتؤثر العزلة على الاحتكاك بغيرها من الفرق وقد وصف المؤرخون وكتاب المقالات أتباع الإباضية بأنهم أهل بدع وأهواء وضلال ونعوتهم بالمروق والغلو والتعصب ولا غرابة في ذلك لأمرين:

الأول: اعتماد المؤلفين على مؤرخي الفرق وكتابة المقالات، الذين يكتبون ويؤرخون انطلاقا من موقف مبدأي الدفاع عن كيان الدولة والتأييد الدائم للسلطة الحاكمة سواء أكانت أموية أو عباسية. ولهذا ينبغي على الكاتب أن يتصدى لكل التيارات المعارضة لنظام الحكم القائم وعليه أن يثبت– بأي طريقة– أن الأقلية الخارجة عن السلطة هي كذلك خارجة عن الدين، وحيث ان الإباضية تقرر أصولها السياسية بأن الخلافة منصب مشاع بين الناس يحق لكل مسلم إذا توفرت فيه الأهلية والكفاءة أن يتولاه، وهذا يعني: المعارضة الصريحة لنظام الحكم القائم على الوراثة، ولأجل ذلك عاشت الإباضية حياة الاضطهاد في كثير من مراحل تاريخها مما اضطر أتباعها إلى الدخول في الكتمان وإخفاء أمرهم إلى حين استجماع قوتهم ماديا وفكريا ولعل هذا ما يفسره البعض بالانزواء والانغلاق.

الثاني: عدم اطلاع الدارسين على التأليف الإباضية والرجوع إلى مصادرهم والاكتفاء بتأليف المخالفين. ولعل السبب في ذلك يعود إلى نقص المصادر الإباضية وان صح هذا فسببه الظروف الصعبة التي كانت يعيشها الإباضية– كما أشرنا.

ومهما يكن من أمر فإن الباحث لا ينكر ما لاقته الإباضية من اضطهاد من طرف الحكام أو ببغض وكره من طرف المذاهب الأخرى أو تحامل واتهام بالزيغ ونعت بالخروج عن الدين من طرف المؤرخين وكتاب المقالات ورغم ذلك كله يتقبل الإباضية ذلك بحسرة ولا يقابلون بالمثل إلا نادرا في حالة الدفاع عن النفس إذا كان الأمر اقتتالا أو دفاعا عن الدين إذا بلغ الأمر انتهاكا لأصل من أصوله أو تعد لحد من حدود الله.

وفيما عدا ذلك فالتسامح والتجاوز عن الهفوات وكظم الغيظ من شيم الإباضية حرصا على التآلف والتقارب وجمع الشمل، أما الخلافات المذهبية فتراها الإباضية ناضجة عن الاجتهاد المشروع ومحاولة فهم الشريعة الإسلامية كتاب الله وسنة رسوله وهي المنبع الوحيد الذي تأخذ منه جميع الفرق، وانطلاقا من هذا المفهوم يرى الإباضية والمعاصرون خاصة: أن عهد المذهبية قد ولى وزمان الصراعات بين الفرق الإسلامية قد فات أوانه، وأنه ينبغي الاعتراف "أن جميع الفرق والمذاهب الإسلامية تقف متساوية على صعيد واحد فليس فيها فرقة أفضل من فرقة ولا مذهبا

خير من مذهب "والحقيقة التي لا سبيل إلى إنكارها أن المسلمين في حاجة إلى التعارف الكامل في هذا العصر الذي تيسرت فيه وسائل اللقاء وفي حاجة إلى أن يطلعوا جميعا عل الحق الذي حمل كل فرقة جانبا منه". والواقع أن كل فرقة إسلامية قد ساهمت في خدمة الإسلام من زاوية معينة فلا ينبغي لفرقة أن تعتبر نفسها ممثلة الإسلام وغيرها تابع.

وبما أن الفرق نتجت عن اختلاف العلماء واجتهاداتهم فإن الآراء التي استخلصوها لا تخلو من الهفوات. ففي علم كل عالم مأخوذ ومتروك، وعليه فالأجدى بالمسلمين اليوم أن يبحثوا في إيجابيات الفرق ويستثمرها ويغضوا الطرف عن سلبيات المذاهب ما دام الاشتغال بها يورث الفرقة والصراع ولا ينكر أحد أن لكل فرقة إسلامية حسنات على الأمة لخصها علي يحي معمر فيما يلي: فضل الشيعة على الأمة جهدهم في إثبات حق آل البيت في الحياة وفي الحكم ولولا الشيعة لقضي جبروت بني أمية علي بني هاشم.

وميزة الخوارج كفاحهم المرير لما استنام المسلمون وسكتوا عن الانحراف بدولتهم من الخلافة إلى الملكية فقاوموا تسلط الديكتاتورية الملكية على الحكم في الإسلام وإخراجه من نظام الشورى إلى نظام الملك العضوض. ولولا المعتزلة لكانت الفلسفة القديمة بما أوتيت من براعة الجدل وذكاء التمويه قد استطاعت أن تنحرف بعقيدة المسلمين عن الإسلام. ولولا الإباضية لما كانت هناك حلقة في الاعتدال والتوسط بين الفرق المتطرفة فقد حاولت تقليل التباعد بين الآراء سواء في العقيدة أو السياسة. ولولا أهل السنة الذين ناصروا الدولة الأموية ثم العباسية لما بلغ العرب ما بلغوا من حضارة قوامها الإسلام أعطت دفعا قويا للحضارة الإنسانية. ولولا الظاهرية والحنابلة الذين تمسكوا بالنص واعتمدوا عليه دون العقل لما خدمت النصوص الإسلامية على هذا المستوى العلمي الدقيق الذي نفتخر ونعتز به. ولولا النزعة العقلية المتحررة من الفقهاء المعتمدة على العقل والمنطق في مناقشة النصوص والآثار لبقى الفقه الإسلامي تحت أثقال من الركود والجمود.

هذا هو الإطار العام الذي يشمل الفكر الإسلامي وتتفق فيه الفرق الإسلامية كل واحدة بما تحمل من شعارات خاصة. فالكل متكامل والكل يخدم الوحدة الإسلامية، وهذا هو رأي الإباضية في طبيعة الفكر الإسلامي الذي ينبغي أن يكون حركة إنسانية شاملة تذوب فيها العصبية والطائفية لتحل محلها القناعات المذهبية التي تكمل بعضها البعض لتخدم الإسلام والمسلمين30.

المطلب الثاني : آثاره الفكرية

يقول محمد قطب حول آثار العقيدة في حياة الأمة الإسلامية : الشعور بتقوى الله وخشيته والخوف من يوم القيامة والحساب وما يترتب عليها من انضباط السلوك وصدق الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس وما يترتب عليها من التمكين لهذا الدين في الأرض وتقرير مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يترتب عليه من منع انتشار الفساد في الأرض وتقرير مبدأ التكافل الاجتماعي في الأمة وما يترتب عليه من تماسك الأمة وتعاونها على الخير وخلوها من الضغائن والأحقاد التي تميت الأمم وتذهب ريحها[31] .

تحقيق معنى الأمة في واقع الأرض الأمة التي تلتقي في الله قبل أن تلتقي على الأرض واللغة والجنس والمصالح والتي جعلت المسلم يتنقل في بلاد العالم الإسلامي من المحيط إلى المحيط فلا يحس بالغربة في أي بلد من بلاد المسلمين رغم اختلاف الحكومات وتطاحنها في كثير من الأحيان[32] .
تلك حقائق الدين التي يتعين على كل مسلم أن يعلمها ليقوم بها على وجهها الصحيح وما تزال أجيال من المسلمين بعد أجيال تتعلم هذه الحقائق لتتعرف على الطريقة الصحيحة لعبادة الله جل وعلا. وإذا كان الاختلاف الفكري في حد ذاته موجودا بين الناس , فانه من الضروري إبقاء الاجتهادات في إطارها الفكري , مادام الله واحد والقران واحد , قال تعالى: (ولو وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) (هود 11).

المطلب الثالث : آثاره الاجتماعية :

الدعوة إلى نبذ الفرقة هو نداء بالوحدة الإسلامية, واسترجاع الألفة التي كانت بين المسلمين , ومحاولة التحرر من قيود الخلافات المذهبية , التي أسهمت بدور كبير في تشتت الأمة الإسلامية , وشاعت فكرة التغني بالمذهب والتعصب للرأي والقداسة للأشخاص (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103) وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

(104) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105)) (آل عمران).

(شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (14) فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (15)) (الشورى).

التقريب والتوحيد سيقودان بالنتيجة إلى تذويب الكيانات المصطنعة , والقائمة على قواعد التعصب , وسيؤدي هذا إلى حالة من التمازج الاجتماعي ينموا ويكثر فيها الزواج بين كافة الأطراف وتزدهر العلاقات الاجتماعية وتتشابك فيظهر تبادل المنافع , والزيارات وحضور المناسبات المختلفة لدى كل طرف وبالإرادة والصبر والتوجيه والتعليم المستمر يمكن أن نصل إلى مرحلة متقدمة من الاندماج الاجتماعي التدريجي بين أبناء الأمة تحقيق الوحدة الإسلامية في أوساط المجتمع وبالتالي يمتد إلى الأمة الإسلامية.

خاتمة :

ثبت أن أصول الدين هي قواعده التي يقوم عليها صرحه الشامخ بحيث كان الاتفاق والاختلاف فيها مقياسا للالتقاء والافتراق، والتقارب والتباعد بين فئات الأمة، وإن مما يعزي نفوسنا، ويسلس همومنا أن يلتقي جمهور الأمة على أمهات هذه الأصول، وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره من الله، وإنما اختلفوا في تفاصيل هذا الإيمان. وإن أبرز ما في هذه العقيدة هو التوحيد ويتضح لنا من دراسة الواقع التاريخي أن التوحيد ذو أثر ضخم في حياة الإنسان حينما يعيش واقعا فكريا وشعوريا وسلوكيا وأن الإنسان

يستطيع حينما يتشبع بالتوحيد على هذه الصورة أن يبذل من الجهد وأن يأتي من الأعمال ما لا يستطيعه الإنسان العادي الخاوي من العقيدة .

فلما كان محور الإيمان واحد لا اختلاف فيه بين المسلمين والثوابت والأصول لا جدال حولها ,أصبح واجب كل مذهب هو نبذ الفرقة والدعوة للتقريب والعودة إلى الأصل وتوحيد الأمة تحت كلمة واحدة لأن الله المعبود واحد والأصل واحد والإسلام مهمين ومسيطر , و ترك الاشتغال بتكفير بعضنا البعض والالتفات إلى العدو الحقيقي المترصد للقضاء على وحدة الإسلام , و النظر بعين الضمير لحال الأمة الإسلامية , ومحاولة استقراء ما آلت إليه من جراء الاختلاف , وفي وقفة عقلانية وواقعية مع النفس , تكون النتيجة المحصل عليها هي قيل, وقال (الشيخ ... العالم) وتركنا ما قاله الحق وهو الحق , فلا نعود إليه إلا إذا أردنا تثبيت ما نقوله نحن , لذا فنحن أمة التوحيد والوحدة وإن كانت كثرة المذاهب , لها سلبيات فلماذا لا نجعلها إيجابية , أليس الاختلاف موجود داخل المذهب الواحد نفسه , أليست المسائل المختلف فيها وان سموها أصول أو مسائل فرعية متعلقة بأصول و هي في الحقيقة فروع ومسائل اجتهدوا في وضعها والكل يستند إلى النص وأنه على حق والآخر على ضلال بزعمهم إذا كان الحق واحد والفرق أكثر مما ذكرت في حديث افتراق الأمة وكل يرى الحق في مذهبه .

الهوامش:

1. علي يحي معمر , الإباضية مذهب إسلامي معتدل ص 9
2. آراء الخوارج الكلامية, عمار طالبي ج1 الموجز لأبي عمار عبد الكافي ، ص:202.
3. المواقف في علم الكلام ، عضد الله وعضد الدين القاضي عبد الرحمان الإيجي ، بيروت ص 420
4. علي يحي معمر , تق , احمد بن سعود السيابي , الإباضية مذهب إسلامي معتدل , ط3 ص27
5. المصدر نفسه ص28
6. المصدر نفسه ص28
7. المصدر نفسه ص28
8. علي يحي معمرص30
9. عدون جهلا , الفكر السياسي عند الإباضية , ص49

10. البعد الحضاري للعقيدة عند الإباضية، فرحات بن علي الجعبيري، جمعية التراث– الجزائر، : المطبعة العربية – غرداية. ص: 294
11. البعد الحضاري للعقيدة عند الإباضية، فرحات بن علي الجعبيري، جمعية التراث - غرداية – الجزائر، :ج1 المطبعة العربية ص295
12. المصدر نفسه ص258
13. تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي موسى الأشعري 57/1
14. تاريخ بغداد للخطيب 346/11.
15. شذرات الذهب للعماد 2/ 303.
16. أبو الحسن الأشعري حماد بن محمد الأنصاري الخزرجي السعدي (ت1418هـ)الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة اط6 - العدد 3رجب 1394هـ - فبراير 19741ج 1ص60
17. أبو الحسن الأشعري حماد بن محمد الأنصاري الخزرجي السعدي (ت1418هـ)الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة اط6 - العدد 3رجب 1394هـ - فبراير 19741ج 1ص60
18. المواقف في علم الكلام ، عضد الله وعضد الدين القاضي عبد الرحمان الإيجي ، بيروت ص 43
19. التمهيد لقواعد التوحيد أبي المعين النسفي تح : جيب الله حسن أحمد ط1- 1986
20. أبي الحسن الأشعري , الإبانة عن أصول الديانة , ط1, بيروت _لبنان
21. أبي بكر الباقلاني , تح عبد المجيد بن علي أبو زيد , م1, ص17
22. نظرية الكسب عند الأشاعرة , جدلية الضرورة والحرية في الفكر الإسلامي مرزوق العمري ص 107
23. منهج الإمام فخر الدين الرازي بين الأشاعرة والمعتزلة , خديجة حمادي العبد الله ص 123مج 1 دار النور ط1 _ 2012
24. عمار طالبي آراء الخوارج الكلامية , ج1 الموجز لأبي عمار عبد الكافي الإباضي 1978 الجزائر
25. البعد الحضاري,ج1 ص,95
26. بالحاج بن عدون قشار في -2005 اللمعة المضيئة في تاريخ الإباضية ص92
27. بالحاج بن عدون قشار في -2005 اللمعة المضيئة في تاريخ الإباضية ص92
28. بالحاج بن عدون قشار في -2005 اللمعة المضيئة في تاريخ الإباضية ص92
29. عدون جهلان , الفكر السياسي عند الإباضية ص98
30. البعد الحضاري فرحات بن علي الجعبيري, ص449
31. الفكر السياسي عند الإباضية ص120
32. محمد قطب ركائن الإيمان ص 437
33. محمد قطب ص438